

المحاضرة الثامنة

مناهج المعرفة: المنهج الجدلي والإشراقي

◆ مفهوم المنهج الجدلي

الجدل لغة: ورد الجدل في اللغة بمعنيين: المعنى الأول: النقاش أو الخصام (جدل الرجل جدلاً: خاصمه أشد الخصومة والجدل الخصام والجدل الخصام مع الناس، تجادل القوم تصارعوا وتعادوا، وجدل ناقش بالحجج والأدلة "ها أنتم جادلتهم عنهم في الحياة الدنيا"، "وجدلوا بالباطل"، "وجدلهم بالتي هي أحسن"). المعنى الثاني: الفتل والضم (واصل المعنى في هذه المادة الفتل، وضم شئ إلي آخر. والمجدول المفتول. ودرع مجدول أي محكم النسيج، وجدل الحبل جدلاً قتله قتلاً محكماً، وجدل شعره فتله).

الجدل اصطلاحاً: وأما من الناحية الاصطلاحية فقد تغير هذا المعنى عبر الزمان، في البداية وفي وقت الإغريق كان الجدل يعني فن إدارة الحوار والمناقشة والاستدلال على الحقيقة من خلال التناقضات الموجودة في حديث الخصم، والجدل أيضاً طريقة للأسئلة والأجوبة واستدلال الحقائق من خلال هذه الأسئلة والأجوبة.

ومن معانيه الاصطلاحية (أن يقابل نقيضان أي أن يجتمع في محتوى واحد، وهذا التناقض يؤدي إلي صراعهما حتى يخرج منهما أي من باطن الشئ الذي اجتماعاً فيه شئ مختلف عنهما، وبالتالي يعتبر بالنسبة إليهما خطوة إلي الأمام أو أكثر تقدماً). وعلى هذا الوجه قال هيجل وماركس بقانون الجدل. فالمعنى الأول للجدل (الخصام) يقارب الجزء الأول من المعنى الإصطلاحي له (تقابل النقيضين وصراعهما) كما أن المعنى الثاني (الضم) يقارب الجزء الثاني من المعنى الإصطلاحي له (أن يخرج من الشئ الذي اجتمع فيه النقيضان شئ ثالث مختلف عنها وفي ذات الوقت يتجاوزهما كنقيضين ويؤلف بينهما). كما يمكن تعريف المنهج الجدلي بأنه عبارة عن طريقة في التفكير وفي البحث العلمي تدرس العلاقات المتبادلة في التأثير ما بين الظواهر المختلفة، وبالتالي فالمنهج الجدلي يتتبع مراحل تغير الظاهرة بناء على الصراع الداخلي الذي يحدث للظاهرة وهو عكس المنهج التجريبي الذي يدرس الظاهرة من الخارج عن طريق الملاحظة والتجربة. وفي ضل غياب تعريف دقيق ومحدد للمنهج الجدلي، يضل هذا التعريف إجرائياً فقط لتمييزه عن باقي المناهج.

◆ التكوين التاريخي لهذا المنهج

يعتبر المنهج الجدلي منهجاً قديماً في فلسفته وأساسه وفرضياته، حديثاً في اكتمال وإتمام صياغته وبناءه كمنهج علمي للبحث والدراسة والتحليل والتفسير والتركيب والتأليف بطريقة علمية. فلقد ظهرت نظرية الجدل قديماً عند الإغريق على يد الفيلسوف اليوناني هيرقليطس قبل الميلاد، والذي صاغ أساس نظرية الجدل (الديالكتيك). ولقد تطور الديالكتيك تطوراً كبيراً وجديداً على يد الفيلسوف الألماني هيجل الذي بلور وجسد تلك النظرية وبنائها وصاغها كمنهج علمي لدراسة وتحليل الحقائق والأشياء والظواهر والعمليات وتفسيرها وتركيبها علمياً ومنطقياً بطريقة شاملة حيث أن هيجل هو الذي اكتشف القوانين والقواعد والمفاهيم العلمية للديالكتيك والتمثلة في قانون تحول التبدلات الكمية إلى تبدلات نوعية وقانون وحدة وصراع الأضداد، وقانون نفي النفي. وبلغ الجدل مع هيجل ذروته، وأصبح منهجاً فلسفياً شاملاً، «قدم معه العالم كله الطبيعي ومنه والتاريخي والعقلي أول مرة على أنه صيرورة، أي في حالة حركة وتغير وتحول وتطور دائم». يتميز الديالكتيك عند هيجل بأنه ديالكتيك مثالي، وعلى هذا الأساس انتقد الفيلسوف الألماني فورباخ النزعة المثالية عند هيجل ونادى بضرورة اتسام واتصاف الديالكتيك بالنزعة المادية حتى يصبح موضوعياً وواقعياً وعلمياً. بعدها قام كارل ماركس، وهو من أنصار الديالكتيك الهيجلي بإعادة صياغة نظرية الديالكتيك الهيجلي بإعادة صياغة نظرية الديالكتيك صياغة مادية علمية عملية، فأبقى عليها بكل نظرياتها وأساسها وفرضياتها ولكن نزع منها الطبيعة المثالية.

◆ ولهذا هناك جدل مثالي وهناك جدل مادي:

أ/المنهج المثالي الجدلي (الهيجلي): يرى هيجل أن الفكر المطلق هو الوجود الأول، أما الأشياء والظواهر المادية فهي مجرد تجسيد له، هذه الأولوية للفكر على المادة هي المثالية

ب/المنهج المادي الجدلي (الماركسي): كان ماركس تلميذ هيجل، غير أنه أنكر وجود الفكر المطلق، وكان يؤمن بأن المادة هي الوجود الأول، أما الأفكار فهي تجسيد لها، فجعل المادة تتطور والأفكار تتبعها إلي حيث هي متطورة.

◆ المنهج الجدلي قوانينه ومبادئه

يقصد بهذه القوانين مجموعة من القواعد والمفاهيم العلمية المترابطة في بناء هيكل الديالكتيك كمنهج بحث علمي، ومن أهم هذه القوانين: قانون تحول التبدلات الكمية إلى تبدلات نوعية ثم قانون وحدة وصراع الأضداد، وأخيراً قانون نفي النفي. قانون تحول التبدلات الكمية إلى تبدلات نوعية: ويقوم هذا القانون ببيان كيفية تعرض الأشياء والظواهر للتحويلات والتبدلات الكمية بصورة تدرجية ومنسجمة إلى أن تبلغ معياراً واحداً معيناً، لتحول نتيجة ذلك تبدلات وتحولات نوعية في طبيعة الأشياء والظواهر، من صورة قديم إلى طبيعة جديدة متضمنة في ذات الوقت عناصر من الشيء أو الظاهرة أو العملية القديمة المتغيرة. ٢. قانون وحدة وصراع الأضداد والمتناقضات: ومضمونه أن كل الأشياء والظواهر والعمليات هي دائماً في حالة حركة وتغير وتطور، وأن سبب هذا التحول القوة الدافعة والمحركة لحالة التغير والحركة في الأشياء والظواهر، ذلك أن كل شيء أو ظاهرة هي عبارة عن كتلة أو وحدة مترابطة من العناصر والخصائص والصفات المختلفة والمتناقضة والمتضادة والمتفاعلة بطريقة تناوب

وتجاذب.
٣. قانون نفي النفي: يقوم هذا القانون بعكس وتفسير العلاقة بين مختلف مراحل التطور والتبدل والارتقاء والنتيجة الناجمة عن ذلك. فيقوم هذا القانون ببيان وتفسير نتائج مراحل ديالكتيك تطور الأشياء والظواهر والأفكار، من أفكار وحقائق إلى حالة وجود أفكار وحقائق متعارضة متقابلة ومتناقضة داخل الشيء الواحد أو العملية الواحدة ثم مت ينتج عن ذلك من الظواهر والحقائق والعمليات والأفكار السابقة الفانية.

♣ خصائص المنهج الجدلي ومكانته ضمن الحقول المعرفية

يعتبر المنهج الجدلي كباقي المناهج العلمية، يحظى بأهمية ما من حين لآخر، حسب الحقل المعرفي الذي وظفت فيه، وبالتالي فإن لكل منهج خصائصه ومجاله العلمي الذي يخدمه، حيث أن بعض المناهج لا يمكنها أن تخدم إلا مجالاً واحداً دون الآخر، في حين أن مناهج يمكن تطبيقها في أكثر من مجال معرفي واحد فالمنهج الجدلي وكما تمت الإشارة إليه يرتكز على ثلاثة عناصر: الطرح والطرح المضاد ثم التركيب، من خلالها يمكننا أن نستشف خصائص هذا المنهج. وحسب تصنيفات المناهج وأنواعها، يعتبر المنهج الجدلي من المناهج الفلسفية العامة ويؤكد ذلك أن جل دارسي هذا المنهج يربطونه بالدراسات الفلسفية حيث أن هناك من ينعت به بأنه تيار فلسفي مضاد للتيار الميتافيزيقي، ويقوم على قصور مختلف الأشياء والأفكار والكون وبلجاً إلى منطق خاص وهو المنطق الجدلي، الذي يؤكد على مبدأ التطور الذاتي للأشياء.

♣ المنهج الإشراقي

الإشراق في اللغة: الإضاءة، يقال أشرقت الشمس طلعت وأضاءت، والإشراق في كلام الحكماء: ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وضيئانها على الأنفس الكاملة عند التجرد عن المواد الجسمية، وتختلف الحكمة الإشراقية عن الفلسفة الأرسطية بأنها على الذوق والكشف والحدس في حين أن الفلسفة الأرسطية مبنية على الاستدلال والعقل. ويشير الجرجاني في التعريفات إلى أن الإشراقيين طائفة رئيسهم أفلاطون، ويذكر أحد الإشراقيين تعريفاً لفلسفته فيقول: إنها الحكمة المؤسسة على الإشراق الذي هو الكشف أو حكمة المشاركة الذين هم أهل فارس وهذا يرجع إلى تعريف الجرجاني لأن حكمتهم كشفية ذوقية فنسبت إلى الإشراق الذي هو ظهور الأنوار العقلية ولمعانها وضيئانها بالإشراق على النفوس عند تجردها، وكان اعتماد الفارسيين في الحكمة على الذوق والكشف، وكذا قداماء اليونان عدا أرسطو ومن معه فإن اعتمادهم كان على البحث والبرهان لا غير. ولا ينكر الإشراقيون قيمة المصادر الأخرى للمعرفة، بل يعترفون ولو نظرياً بقيمة ما تقدمه من معرفة في مجالات وحدود معينة من المعرفة، فيرون أن الحس مصدر للمعرفة له ميدانه، والعقل مصدر آخر له ميدانه أيضاً، والوحي الذي جاء به الأنبياء مصدر ثالث.

ويترتب على ما تقدم:

- أن الإشراق يتضمن ظهور الموجود أي تأسيس وجوده، وهذا الظهور هو عملية إدراكية للنفس المستعدة للكشف.
- هناك ترادف بين لفظ (إشراقي) و(مشرقي)، فيمكن فهم الإشراق بالإضافة إلى المعنى الأصلي على أنه حكمة المشرقيين أي الشرقيين الذين يقعون جغرافياً في الشرق ويقصد بهذا الإشارة بلاد فارس. تقوم الفلسفة الإشراقية في مقابل المشائية. أي الذوقية والكشفية والإشراقية مقابل العقلية

بعض المفاهيم المرتبطة

- الكشف: هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والأمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً.
- الذوق: نور عرفاني يقذفه الحق بتجليه في قلوب أوليائه، يفرقون به بين الحق والباطل، من غير أن ينقلوا ذلك من كتاب.
- البصيرة: مصدر المعرفة في الإنسان الصوفي وهي الملكة التي ترى حقائق الأشياء وبواطنها، كما يرى البصر ظواهر الأشياء المادية، وهي مورد الإلهام وموطن الإشراق، ومصدر الكشف والذوق.
- وهذه الفلسفة وإن كانت لها جذور متأصلة في عمق التاريخ إلا أنها برزت وصار لها أعلامها في الحضارة الإسلامية، حيث إنها وجدت أرضاً خصبة في المذهب الصوفي والذي استطاعت من خلاله أن تثبت نفسها فلسفةً ومنهجاً رئيساً من مناهج الفكر في الحضارة الإسلامية.
- ويعد شهاب الدين السهروردي المقتول سنة 586هـ أبو الفلسفة الإشراقية في الحضارة الإسلامية، ونستطيع ردّ مجمل العناصر التي اعتمدها السهروردي في تشييد فلسفته إلى ثلاثة أصول رئيسية: الأصول الإسلامي واليوناني والأصل الفارسي.